تشتمل الإجابة نقاطاً أربعاً :

الأولى : موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة .

الثانية : موقف المسلمين الحالي من الآية الكريمة .

الثالثة : تربية الأصحاب رضوان الله عليهم تربية بيع النفس في سبيل الله (في مكة وفي المدينة) .

الرابعة : ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من الآية الكريمة في الأيام التي يغلب فيها المسلمون على أمرهم .

١ ــ موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة :

وهكذا أوجدت الآية الكريمة ــ بندائها الحازم وجوّها الرهيب وتهديدها المريع ــ لدى المسلمين الأولين شعوراً بأنه لا يجوز للمؤمن أن يفر من زحف المشركين وإن كان عددهم بعدد الرمل والحصا ، وإن ملؤوا السهل والجبل . ولم يكن ليقوم في أذهان المؤمنين السابقين في مواطن اللقاء أن العدو أكثر منهم عدداً وأقوى عدداً ذلك لأن النصر بيد الله والغلبة بعونه ، وأنه لما يخدش في عقيدة المسلم أن يخشى مناجزة الكافرين ، وإن كثر عددهم واشتد بأسهم ، والله تباركت أسماؤه يعتب على المؤمنين أن يخشوا الناس ، يقول تعالى : « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »[1] . وفي هذه الآية إنكار وتعجب ووعيد وفي

---

(١) التوبة : ١٣ .

قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » [1] : تعنيف وزراية بأولئك الذين يخشون الناس . والآية الكريمة نفسها تبين سر الضعف . قال تعالى : « وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً » [2] . مفتاح السر في قوله تعالى : « متاع الدنيا قليل » وهو محور الموضوع كله .

وهكذا كان أمر الفرار من الزحف متصلاً بالعقيدة اتصالاً واضحاً ، ذلك أن الباعث له الحرص على متاع الدنيا والزهد في الآخرة . والثبات يوم الزحف مبعثه الإيمان بقوة الله جل شأنه وأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده ، والطمأنينة إلى نصره والثقة بما عنده . وما عند الله خير وأبقى . وإن الموت لا يعجل به إقدام ولا يبطىء به قعود ولا إحجام .

كان المسلمون في مؤتة ثلاثة آلاف ولما بلغوا مَعان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مَآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبليّ مائة ألف ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

---

(١) آل عمران : ٧٧ .

(٢) آل عمران : ٧٧ .

وهنا نجد منطقاً معقولاً لا غبار عليه ولا ثلمة فيه ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ وكان العامل في ذلك اقتراح تقدم به عبد الله ابن رواحة إذ قام فقال : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ــ الشهادة ــ وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة . فقال الناس : قد صدق والله ابن رواحة فمضى الناس .

وقد استشهد في الموقعة زيد بن حارثة واستشهد جعفر بن أبي طالب واستشهد عبد الله بن رواحة . يروي البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه ، في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية . وفي الصحيحين أنه ﷺ لما ذكر مصابهم وهو فوق المنبر جعل يقول : « أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله عليه » . قال وإن عينيه لتذرفان . قال وما يسرهم أنهم عندنا .

ولقي الروم من شدة وطأة المسلمين ما جعلهم يرضون من الغنيمة بالإياب وبأن يكف المسلمون عنهم ، يقول ابن اسحاق : « فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » وهذه المدافعة تشير إلى ما أبدى خالد للعدو من البأس وأقصى درجات البطش ، يروي

البخاري في صحيحه عن قيس قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية . وقد ذكرنا ما رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . يقول ابن حجر : « فمن يومئذ سمي سيف الله » . ثم انحاز خالد رضي الله عنه فرأى الروم في انحيازه متنفساً للضيق الذي كانوا فيه فلما انحاز انحاز الأعداء . يقول ابن حجر وقع في المغازي لموسى بن عقبة ــ وهي أصح المغازي ــ ما نصه : « ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين . » .

ويفسر ابن اسحاق قوله عليه الصلاة والسلام (حتى فتح الله عليه) بأن المراد به انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين . أما ابن كثير فيقول : وموسى بن عقبة والواقدي يصرحان بأنهم هزموا جموع الروم والعرب الذين معهم وهو ظاهر الحديث المتقدم (ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه) وهذا هو الذي رجحه ومال إليه الحافظ البيهقي بعد حكاية القولين .

ويقول ابن اسحاق : « حتى انصرف خالد بالناس ووصل المدينة واستقبلهم الناس وجعلوا يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فرار ، فررتم في سبيل الله فيقول رسول الله ﷺ ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى » .

وروى أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود عن ابن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنامن الزحف وبؤنا بالغضب ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال من القوم قال فقلنا نحن الفرارون قال : لا بل أنتم الكارّون ، أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين قال فأتيناه حتى قبلنا يده . يشير ابن عمر وأصحابه الذين حاصوا بقولهم فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب إلى قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله »[1] .

وهكذا أدرك الأصحاب معنى الآية إدراكاً عميقاً بلغ سويداء الفؤاد وشغاف القلوب ، وهكذا وضعوها موضع التنفيذ العملي الدقيق .

٢ ـ موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة :

والمسلمون اليوم قد نسوا أمراً واحداً ألا وهو صناعة الموت وحرفة القتال .

وإن المرحلة التي يمر بها المسلمون اليوم لم يسبق لها مثيل في التاريخ أبداً ذلك أن كيد العدو ما بلغ في يوم في إحكامه ونفاذه

---

(١) سورة الأنفال : ١٦ .

واتساع مداه ما بلغ اليوم ، وما بلغ استسلام المسلمين في يوم ما بلغه استسلامهم اليوم .. وما يؤذن كل ذلك إلا باقتراب الفرج ذلك إن الشرور قد بلغت غايتها والعدو قد بلغ النهاية في ظلمه وطغيانه ... وههنا يزداد المؤمن ثقة بالله وبعونه ونصره ويستبشر المؤمن كما يستبشر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه حينما تحدق الخطوب وتشتد الكروب .

إن بشائر الأمل لا تنقطع ، ولكن ساعة الانطلاق لم تؤذن بعد ، وما زلنا في مرحلة لا يشعر الفرد منا فيها بأن عليه أن يحمل التبعة ولو كان وحده . ولكنا يلوم بعضنا بعضاً ويلقي كل منا التبعة على غيره .

وإن الأجيال ستوجه إلينا العتاب الطويل ، وإن الله تباركت أسماؤه سيسألنا كيف أسلمنا الأمر بأيدينا لخصومنا ؟ وكيف سلونا عن واجبنا ؟ وكيف لهونا عن عدونا ؟ أين كنا حين سطا الأعداء وماذا فعلنا حين غلب الدخلاء وكيف استقرت بنا الأرض بعد أن قهرنا الأذلاء ؟

وإن كثيرين من أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر ــ من أمثالي ــ لا يحبون أن يسمعوا كلمة القتال ولا يروق لهم أن يتحدث متحدث عن الجهاد . ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم ، سمعت من كثيرين من الأماثل يقولون : أليس هنالك موضوع غير الجهاد ؟ أليس في الإسلام فريضة إلا فريضة الجهاد ؟

ويقولون : كيف يمكن الجهاد ؟ والمسلمون مشتتون وقلوبهم متفرقة والجهل غالب والبعد عن روح الإسلام عام شامل ؟!

ويقولون ألا يشبه حال المسلمين اليوم حال أهل مكة وقد قيل لهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

أقول : إن العلة الحقيقية هي ما غلب على قلوب المسلمين علمائهم وعامتهم من حب للدنيا وكراهية للموت ، والذي يحول بيننا وبين العمل في سبيل الله والدعوة إلى الله والصدع بالحق ، الخوف على الدنيا والخوف من الموت .

إن التربية على حب الدنيا وكراهية الموت غرست في قلوبنا وأحكم غراسها في أعماق نفوسنا ؛ اتفق على ذلك آباؤنا وإخواننا ومعلمونا ومجتمعنا ، وعلى ذلك ربينا نحن أيضاً الأبناء ونشأنا الأجيال .

إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها وهو موضوع الساعة وليس هنالك اليوم بعد الإيمان بالله وإداء الأركان فريضة أكبر من فريضة الجهاد ذلك أنه الوسيلة اليوم لحفظ إيمان المؤمنين ، وتركه يؤدي إلى ضياع الفرائض كلها إذ يسمح لاعداء الله بفتنة المسلمين وإخراجهم من دينهم .

ولقد جحد الإله جل شأنه في بعض البلاد الإسلامية واستهزىء به تباركت أسماؤه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً وحرق المسجد الأقصى وقتل علماء المسلمين على مرأى ومسمع

من إخوانهم ؛ كل ذلك لأن مهابة المسلمين قد نزعت من صدور الكافرين ... ولكن الأدهى من كل هذا أن تخطيط الأعداء ومكرهم لم ينته عند هذا الحد ، ذلك أنه ما تزال في المسلمين بقية يخشى الأعداء نموها وعودتها إلى أيامها الأولى ، ولن يطمئن هؤلاء حتى تزول البقية الباقية ، ولكن الله غالب على أمره وإننا كما نؤمن بأن الله ربنا ، نؤمن بأن الله ناصر دينه معل كلمته .

إن الله قد فرض علينا القتال وإن المسلمين يدفعون اليوم هذه الفريضة بأعذار واهية ولو انهم آمنوا بالله وامتثلوا أمره لوجدوا السبيل لدفع الأعذار وقطع دابرها .

أما القائلون كيف يمكن الجهاد والمسلمون مشتتون جاهلون بعيدون من معاني دينهم فجوابهم : علاج هذا كله بالدخول في ميادين القتال ، لقد عرف النصارى الصليبيون الغربيون أنفسهم ووجدوا وحدتهم وخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه بعد أن خرجوا من قتال المسلمين مائتي عام ، لقد بدأت يقظتهم بعد تلك الأعوام بأعوام يسيرة وكانت نهضتهم التي استمرت إلى أيامنا هذه .

إن المسلمين لم يشعروا بعد بالنكبات التي حلت بهم والخطر الذي يحفهم وما تزال وسائل التخدير ماضية لاتسمح للمسلمين أن يفتحوا عقولهم وأبصارهم ، ولو شعر المسلمون بالخطر لاجتمعت قلوبهم فليس شيء يجمع القلوب كالمحنة حين تعم .

لم يشعر المسلمون بالمحنة لأنهم لم يدخلوا جميعاً في صف واحد كما أمرهم الله في قتال العدو ولو دخلوا لشعروا بوطأة المحنة.

إن العدو اليوم لا يستعمل أسلحته المادية فحسب في قتال المسلمين ، ولكن لديه إلى جانب ذلك أسلحة نفسية ومكتشفات علمية وهي أمضى من الأسلحة الأولى ، وهدفهم أن يستسلم المسلمون إلى نومتهم ويظلوا في رقادهم .

إن المسلمين اليوم تشبه حالهم حال إخوة كثيرين سلط عليهم عدو ماكر لئيم يذبح في كل يوم واحداً منهم ، ثم يسرع إلى الآخرين بالطبول والمعازف والزمور فينسون أخاهم المذبوح وينصرفون إلى لهوهم ..

إن أعظم ميدان للتربية ميدان القتال ذلك أن الذي قدم نفسه للموت في سبيل الله واستطاع أن يجاهد نفسه حتى وصل إلى هذه الغاية ، يهون عليه أي جهاد آخر ، ففي هذه الميادين تخلص النفوس وتمحص النوايا وتصدق العزائم وتصفو القلوب، إنّ واجباً علينا أن نعد أنفسنا لندخل الميدان ، وهنالك حين ندخل ــ نحن المؤمنين ــ الميدان يتم إيماننا وتكمل تربيتنا ، وإذا كان لا بد للقتال من مرحلة تسبقه وتعد له فهذا الإعداد والتهيؤ فرض على المسلمين وواجب عليهم أن يباشروه .

وأما قول القائلين بأن المسلمين اليوم في مرحلة تشبه المرحلة المكية فهو خطأ من وجوه :

أولها : أن الأصحاب رضوان الله عليهم لم يكونوا في مكة في نوم ولا استسلام لاعداء الله ، ولكنهم كانوا في أعلى درجات الجهاد معلنين إيمانهم بالله وكفرهم بالطواغيت وبأنظمة المجتمع الجاهلي وعقائده وأعرافه ، منسحبين منه محاربين له مجاهرين بازدرائهم له واحتقارهم إياه ، خارجين عليه خروجاً تاماً في عقيدته ومثله وأعرافه وتقاليده . ولقد كانوا لكل هذا في تحد دائم وصبر مستمر على العذاب والأذى والاضطهاد ، لقد صبروا وصابروا وهاجروا مرتين وأوذوا وقوطعوا حتى أكلوا أوراق الشجر . أين المسلمون اليوم من كل هذا في استسلامهم لجاهلية اليوم وسكوتهم عنها ومشاركتهم فيها وتأثرهم بها .

لقد كان أصحاب رسول الله في مكة جادين عازمين مصممين يعدون العدة ويجمعون القوى لليوم الذي يواجهون فيه العدو .

أما نحن اليوم فيجب أن نخرج من دور اللعب واللهو واللغو ودور الأماني إلى مرحلة الإعداد والتهيؤ والتخطيط والعمل والجد والعزيمة .

الأمر الثاني : إن الله قد أتم دينه وأكمل نعمته وحد حدوده وفرض فرائضه وأحكم شريعته . وحكم القتال اليوم في شرعة الله فرض عين في رقبة كل مسلم ، من تركه كان مخالفاً لأمر الله واقعاً في الإثم ــ وكذا حكم الاعداد له ــ ، والقتال في المرحلة المكية كان منهياً عنه لم يؤذن به ولم يسمح للمؤمنين بمباشرته ، وكان

يعتبر من فعله عاصياً مخالفاً لأمر الله فكيف يصح أن تقاس الحال التي لم يفرض فيها القتال ولم يؤذن به ، بالحال التي يكون القتال فيها فرضاً عينياً من قصر فيه كان من أهل الإثم والوعيد ؟.

الأمر الثالث : كان عدد الأصحاب في العهد المكي لا يزيد على بضع مئات وعدد المسلمين اليوم سبعمائة مليون كلهم رجالاً ونساءً شباباً وشيوخاً فرض الله جل شأنه عليهم القتال فرض عين في هذه الساعات الرهيبة ، فكيف تقاس مئات الملايين على بضع مئين ؟

إن الموضوع اليوم موضوع القتال وإنها ساعة النفير العام ، وإنها ساعة الجهاد والتنافس في الجهاد ، والساعة التي يجب أن تسري فيها عدوى الجهاد في قلوب المؤمنين من فئة إلى فئة .

وإن العدو اليوم لا يجد في أمر المسلمين حيرة ، ولا يجد عناء ، بل المسلمون اليوم كما يريد الأعداء هادئون مطمئنون يساقون إلى الموت وهم غافلون ، ولو فزع كل مسلم إلى سلاحه كما أمر الله لتحير العدو ودهش .

٣ ـ تربية بيع النفس لدى أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم :

كان الأصحاب في مكة رضوان الله عليهم يمثلون الجماعة التي أخذت على نفسها حماية الحق الذي آمنت به وإن كان من

وراء ذلك جفوة الأهل وسخط العشيرة ، وإن كان من وراء ذلك العذاب والنكال .

وكانت آيات الكتاب الحكيم تقص عليهم نبأ الذين كانوا من قبلهم تتفتح قلوبهم لدعوة الحق والإيمان بالله فيفتنهم الذين كفروا فلا يصرفهم العذاب عن إيمانهم ، كان الأصحاب يتلون تلك الآيات ويعاهدون على الثبات كما ثبت المؤمنون من قلبهم .

ولم يكن ليؤذن لهم أن يواجهوا يومئذ البطش بالبطش ولا الأذى بالأذى ،ولم تكن نفوسهم تلك النفوس التي ترضى بأن تحتمل ضيماً ، ولكنها التربية الحكمية الكاملة ، الطاعة لله ولرسوله والضبط والإحكام ، قيل لهم : (كفوا أيديكم) فكفوا أيديهم وأخذوا يروضون أنفسهم على الصبر والأناة واحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاغين .

ولم يكن المؤمنون ذاك اليوم في ذل ولا استخذاء ولا يأس ولا وهن ولكنهم كانوا يحتملون الأذى والموت في سبيل الله وعيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنهم .

ثلاثة عشر عاماً تمر في تربية الضبط والإحكام ، وتمهد للأعوام العشرة المدنية التي تلتها والتي تم فيها فتح الجزيرة العربية ، وهذه تمهد للأعوام التي تلتها والتي امتد فيها الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب .

انتهت المرحلة الأولى ببيعة العقبة الكبرى حين بايع أصحاب العقبة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وأثرة عليهم وأن يقولوا بالحق أينما كانوا لا يخشون في الله لومة لائم .

وهنالك أُذنَ للذين يقاتلون . وانتهت المرحلة الأولى وكان الإذن من عند الله العلي القدير .

وإنه لأمر عظيم أن يضع مخطط َ المعركة الحكيمُ الخبير ، وذلك لتظل تلك الفئة المؤمنة أنموذجاً في الحياة الإنسانية يتطلع المؤمنون إليه كلما أرادوا العود إلى الحياة الحقيقية .

أذن للذين يقاتلون بسبب أنهم ظلموا ، ولو أنهم لم يظلموا ولم يفتنوا عن دينهم ولم يخرجوا من ديارهم لما كانت هنالك حاجة لقتال ، ولكنها سنة الله في خلقه ، ما وجد دعاة الحق في قطر من الأقطار أو عصر من الأعصار إلا صب عليهم العذاب والطرد والإيذاء والاستهزاء . وفي حديث عائشة عند البخاري قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل : « أو مخرجي هم ؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي » .

وفي مدينة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه تربية ثانية يؤخذ بها المؤمنون ، تختلف عن التربية الأولى قليلا في مظهرها واتجاهها لا في روحها وحقيقتها .

كانت التربية الأولى ضبطاً للنفس وصبراً على الأذى وتبليغاً للدعوة وإعداداً للعدة مع حبس دواعي الانطلاق وكف حدة الإقدام ؛ أما التربية الثانية فهي تبنى على الأسس السابقة ثم تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى الانطلاق في سبيل الله للضرب على أيدي اعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن .

كان طابع التربية في المدينة طابع الإقدام والموت في سبيل الله وبيع النفس ابتغاء مرضاة الله ، ليطمئن المؤمنون في ديارهم وليقضى على الشر والشرك والباطل والطواغيت ؛ وكل هذا يحتاج إلى سهر دائم وتحفز مستمر ودفع قوي ، وفي كل هذا يجب أن يكون لدى المؤمنين منعة في نفوسهم وقوة في أرواحهم تربأ بهم أن يخلدوا إلى الأرض أو يضعفوا أو يستكينوا .

كان أول ما قرع أسماعهم في المرحلة الثانية الاذن ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » [1] .وقبل أن يؤذن لهم أعلموا في الآية نفسها تثبيتاً لقلوبهم بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وبعد أن أذن لهم بشروا بأن الله على نصرهم لقدير .

وبعد أن أذن لهم وبعد أن بشروا بنصر الله ذكرت لهم أسباب مقاتلة هؤلاء قيل لهم : إن تركتم هؤلاء الآثمين فستهدم بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم

---

(١) الحج : ٣٨ .

الله كثيراً »[1] ثم تعود الآيات الكريمة ثانية وثالثة فتطمئن المؤمنين وتقر في قلوبهم السكينة « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز »[2] .

والله تباركت أسماؤه خلق هذا الانسان وهو اعلم بما يهدىء روعه ويسكن فؤاده ويعده ـ جل شأنه ـ ويوثق موعده بأنه معه وبأنه ناصره ، كأنما يشير ذلك إلى أن ما ركب فيه من ضعف وهلع وجزع بحاجة شديدة إلى التثبيت والتأييد والعون الدائم والتطمين .

أذن للمؤمنين في المدينة بالقتال ثم أمروا به ثم نبهوا وهم في غمرة النداء ألا يعتدوا فليس الاذن بالقتال إذناً بالاعتداء ، أين هذا من مكر الأعداء الذين يزعمون أنهم تسنموا ذروة المدنية اليوم حين يعترفون ـ أنفسهم ـ بأنهم للوصول إلى أغراضهم من تسيير الشعوب كما يريدون واللعب بها كما يشاؤون،لايبالون باللجوء إلى وسائل شريفة أو دنيئة .

أذن بالقتال ثم أمر به وفرض على المسلمين فرضاً كما فرضت الفرائض وشرعت الأركان ولكن الله الخبير بالنفوس يقول : (وهو كره لكم)[3] ويبين جل شأنه أن هذا المكروه هو خير :

(٢،١) الحج : ٤٠ .

(٣) البقرة : ٢١٦ .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[1] .

الجهاد بيع للنفس في سبيل الله . قال تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد »[2] . وهو وسيلة دخول الجنة ، بل لا بد للمؤمن من أن تمسه البأساء والضراء ، ولا بد من أن يزلزل زلزالاً شديداً في سبيل الله .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب »[3] .

وضرب الله للمؤمنين مثلاً في الأمم التي خلت ، خرج أناس وهم ألوف من ديارهم فارين من الموت فأدركهم الموت جميعاً في خروجهم وفي فرارهم ، ثم أحياهم جل شأنه ليروا معنى الحياة ويدركوا معنى الموت ويتبين لهم وللناس من بعدهم أن الموت ليس بذلك الشبح الذي يخافه المؤمن ويجزع للقياه .

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

(٢) البقرة : ٢٠٧ .

(٣) البقرة : ٢١٤ .

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . فقال لهم الله : موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »[1] وتلا هذه الآية ، الأمر بالقتال والأمر بالإنفاق : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم »[2] ، « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ...»[3].

أذن جل شأنه بالقتال ، ثم أمر به وفرضه على مؤمني المدينة ، ثم أمر بالإنفاق في سبيل الله ، وسمى تباركت أسماؤه ترك الإنفاق إلقاء باليد إلى التهلكة . قال تعالى :

« وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »[4] .

وهذا المفهوم أعني : تسمية ترك الإنفاق ، إلقاء باليد إلى التهلكة ، هو الذي تعطيه الآية الكريمة . وهو التفسير الذي ذهب إليه أبو أيوب الأنصاري صحابي رسول الله ، في حديث يرويه عنه أبو داود في سننه قال فيه : (إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا : هلم نقيم في أموالنا ونصلحها . فأنزل الله تعالى : « وانفقوا في سبيل

---

(١) البقرة : ٢٤٣ .

(٢) البقرة : ٢٤٤ .

(٣) البقرة : ٢٤٥ .

(٤) البقرة : ١٩٥ .

الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد .) قال أبو عمران ـ وهو الراوي عن أبي أيوب ـ فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية . أخرجه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح .

كل هذه الآيات الكريمة التي ذكرناها في سورة البقرة . وقد جاء في الجزء الأخير من هذه السورة الكريمة دعوة حازمة إلى الإنفاق تتلو من بعض آياتها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون »[1] . « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2] . وكان محور السورة الكريمة الجهاد والإنفاق في سبيل الله .

وقد ابتدىء نزول السورة الكريمة في السنة الأولى من الهجرة تمهيداً للأيام المقبلة ، وكانت آيات الله تتنزل على المؤمنين ، فتبلغ قرارة نفوسهم ، وتستقر في أعماق أفئدتهم ، حتى إذا كانت السنة الثانية جنى المسلمون ثمرات تلك التربية ، وكان يوم الفرقان وكان النصر الأكبر في بدر .

---

(١) البقرة : ٢٥٤ .

(٢) البقرة : ٢٧٤ .

ولم تنته المهمة ههنا ولكنها بدئت ، بدئت يوم بدر وكان يوم الفرقان أول السبيل التي تشرف على فتح مشارق الأرض ومغاربها. ولقد استقر الإيمان في قلوب المؤمنين بعد الموقعة ، ورأوا بأعينهم نصر الله وأيقنوا أن الله معهم ، وأن الملائكة تثبتهم وتؤيدهم . فماذا بعد هذا ؟ ليس بعد الإيمان بنصر الله إلا الإقدام ، وليس للمؤمنين بعد رؤية النصر أن يفروا من موقعة أو يخشوا عدواً ، وها هو حكم الله من علياء سمائه حازماً صارماً ينادي المسلمين ويحكم عليهم أبد الدهر بأن من يفر من الزحف فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . ولم يوضع الحكم بصيغة الأحكام ؛ ولكن صور الكافرين وهم زاحفون كموج البحر ، والمؤمنين يتقدمون إلى النصر وكلهم جرأة وثبات وإقدام ، وفي هذه الصورة التي تضع المشهد أمام أعين المؤمنين ، يأتي الأمر من عند الله بأنه من يولهم دبره في هذه الحال فقد باء بغضب من الله .

وإنه لحكم صارم وأمر شديد ، ولكن المؤمن يمتثل أمر الله ، ويسلم نفسه إلى الله ؛ وهنالك تتغير المقاييس ويصبح الصعب سهلاً ، والعسير يسيراً . وليس الفعل فعل المؤمنين ، ولكنه فعل الله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[1] .

---

(١) الأنفال : ١٧ .

ولكن هنالك أناساً يسمعون وهم لا يسمعون وينظرون ولكنهم لا يبصرون ، والله جل ثناؤه يصف هؤلاء ويعيذنا أن نكون منهم فهم شر الدواب .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »[1] .

ولا يكفي في الأمر الطاعة فحسب أو دعوى الطاعة ، إن الطاعة الحقيقية لا بد أن تثمر تلبية واستجابة ، والاستجابة أبلغ من الإجابة ، فهي طاعة والتزام وامتثال وتعجيل بالتنفيذ ، وهذه الاستجابة فيها الحياة وفي تركها الموت . وهذا الحكم ينطبق على كل أمر يأمرنا به الله وكل دعاء يدعونا إليه .

والأمر هنا عدم الفرار من الزحف . وهذا هو النداء الثاني بعد الأول :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »[2] .

ويجب أن يعلم المؤمن أن حق الله على عباده المؤمنين أن يطيعوه ، والعهد إليهم أن يمتثلوا أمره ، فإن لم يفعلوا فقد خانوا

---

(١) الأنفال : ٢٠ ـ ٢٢ .

(٢) الأنفال : ٢٤ .

الله ورسوله . فمجانبة أمر الله خيانة ، وأمره ههنا جهاد ، وموت في سبيله . فالجهاد في الآيات الكريمة محور الموضوع وعليه مدار الحديث وتركه خيانة الله ورسوله . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »[1] . وثمرة الطاعة والاستجابة التقوى ، وثمرة التقوى نور في وجه المؤمن وفي سلوكه وفي قلبه وبصيرته ، نور يفرق به بين الحق والباطل ويفترق به عن غير أمثاله من المتقين، وهذا النور سماه الله تعالى فرقاناً . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم »[2] .

وهكذا اتبع النداء الذي يحذر من الفرار يوم الزحف بأربعة نداءات متلاحقة تؤيده وتؤكده ، تدعو إلى الطاعة والاستجابة وعدم الخيانة والتقوى .

وفي السياق الكريم يؤمر المؤمنون ثانية بعد آيات أن يثبتوا عند لقاء الكافرين ثم يؤمرون أن يعدّوا العدة للقائهم ثم يؤمرون بأن يقاتل الواحد منهم عشرة من الأعداء ويخفف الحكم فيجعل للواحد اثنان .

---

(١) الأنفال : ٢٧ .

(٢) الأنفال : ٢٩ .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[1] .

وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم،وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم »[2] .

وقال تعالى : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين »[3] .

هذه الآيات الكريمة هي بعض ما تنزل في كتاب الله إثر غزوة بدر .

ولما جاءت السنة الثالثة كان ثمرة هذه التربية ثبات المؤمنين حول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بعد أن أصابهم القرح ، وبعد أن تصدع بناء جيش المسلمين في أحد ، وكانت تلك التربية كفيلة بلم الشعث وإعادة البناء . ولولا فضل الله وثبات رسوله

---

(١) الأنفال : ٤٥ .

(٢) الأنفال : ٦٠ .

(٣) الأنفال : ٦٥ ـ ٦٦ .

عليه صلوات الله وسلامه وثبات النفر اليسير حوله يبيعون أرواحهم في سبيل الله ، ويتساقطون عند قدمي رسول الله لما قامت للمؤمنين قائمة ، وتنزلت الآيات الكريمة بعد الموقعة هادية مرشدة تهيب بالمؤمنين ألا يهنوا ولا يحزنوا .

قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[1] . وفي السنة الرابعة طرد المؤمنون يهود بني النضير من المدينة ، ونزلت الآيات مفتتحة بنشيد قدسي ليس فيه ثناء على الظافرين وليس فيه إطراء للفاتحين ولكن الذي يستحق الثناء هو الله وحده :

« سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولي الأبصار »[2] .

وفي السنة الخامسة للهجرة ، ظهرت ثمرات التربية كلها في موقعة الأحزاب . لقد اجتمع العرب جميعاً على المسلمين ورموهم عن قوس واحدة ، وما كان أحد ليصبر كصبرهم على الخوف

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

(٢) الحشر : ١ ـ ٢ .

والشدائد والجوع والبرد • كان ليلهم نهاراً وكانوا يبيتون في حراسة المدينة من المشركين ومن اليهود الغادرين • ولم تكن موقعة أشد على رسول الله ﷺ وأخوف على المسلمين من موقعة الأحزاب •

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً • إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »[1] •

وبفضل الله تباركت أسماؤه كان النصر حليف المسلمين • قال تعالى : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال • وكان الله قوياً عزيزاً »[2] •

هذه خمس سنوات تنقضي في جهاد المؤمنين واستبسالهم ، وهزيمة الأحزاب هي الحد الفاصل بين عهدين أيضاً ، فلقد اعتدلت الكفة وتغيرت الوجهة ، وأصبح المسلمون يُرهبون ولا يَرهبون ويهاجِمون ولا يهاجَمون • قال عليه الصلاة والسلام حين رأى الأحزاب قد انكشفت : « اليوم نغزوهم ولا يغزوننا » •

وبعد سورة الأحزاب نزلت سورة الممتحنة ، وبعدها سورة النساء، وفي سورة النساء دعوة للمؤمنين لإنقاذ إخوانهم المستضعفين المعذبين في مكة •

---

(١) الأحزاب : ٩ ــ ١٠ .

(٢) الأحزاب : ٢٥ .

قال تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً »[1] .

وفي السنة السادسة بدئت خطة الإنقاذ ، وكان صلح الحديبية وكان فتحاً مبيناً وكان تمهيداً لدخول الناس في دين الله أفواجاً .

قال تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً »[2] .

وفي السنة الثامنة توجه المسلمون من المدينة إلى مشارف الشام لغزو الروم .

وفي السنة الثامنة دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة مع عشرة آلاف من أصحابه خاشعاً لله مطأطئاً رأسه ، ليرى الذين أخرجوه وقاتلوه ونابذوه ، ويقول لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وفي السنة التاسعة يعاود الكرة عليه صلوات الله وسلامه في جيش عظيم يقوده بنفسه إلى بلاد الروم ، ويرسل في ذلك العام

---

(١) النساء : ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) الفتح : ١ ـ ٣ .

أبا بكر ليحج بالناس ويعقبه بعلي يتلو صدراً من سورة (براءة) ويخبر المشركين بأنه لا يدخل المسجد الحرام بعد اليوم مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله فعهده إلى أجله .. وتتم الغلبة للمسلمين ويعلي الله كلمته ويتبرأ الله من المشركين ، ويعطون مهلة مقدارها أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كما يشاؤون . فإذا انتهت الأشهر الأربعة أخذ المشركون وحصروا وقتلوا ، وقعد المسلمون لهم كل مرصد .

قال تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ؛ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم ، فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم »[1] .

---

(١) براءة : ١ ـ ٥ .

وهكذا ارتفع لواء الإسلام وأعلى الله منارته . وما كان الإسلام دين عبادة وصلاة وصيام وحج وزكاة فحسب ، ولكنه قبل هذه الفرائض وإلى جانب هذه الأركان ، كان حركة دائمة منظمة ترمي إلى جمع قوى الخير في الدنيا وتنظيمها لضرب قوى الشر ودفعها وتحطيمها .

وهذا المعنى فقده المسلمون بكل أسف وأضاعوه واستناموا واستكانوا ، وكفوا أيديهم ورضوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وما هي بالصلاة التي أمر بها الله ، ولا بالزكاة التي يحبها الله ؛وعدو الله رابض بالقرب منهم يراوغهم مراوغة الثعلب ويأخذ في كل يوم جزءاً من دينهم ويقتطع قطعة من عقيدتهم ويعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

٤ ــ ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة :

ذلك يبينه قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »[1] .

كل شيء في الكون لا يتم إلا بتدبيره جل شأنه وتقديره ، وفي كل ذلك تحاط الوقائع بحكمته ، ويتخللها منّه وكرمه ورحمته ، ومن سنة الله أن يرفع أقواماً ويضع آخرين ؛ وقد يكون

---

(١) آل عمران : ١٤٠ ــ ١٤١ .

أولئك الذين رفعهم وأعلى ألويتهم أنصار الباطل دعـاة الشر ، ولا يرفع الله ألوية هؤلاء لأنهم أثيرون لديه جل شأنه (والله لا يحب الظالمين) ، ولكن الموضوع أمر آخر هو أنه لا بد أن تنفذ سنن الله في مخلوقاته ، والآية التي سبقت هذه الآية هي قوله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبـة المكذبين »[1] . فللأمم سنن وللمجتمعات قوانين وضعها الخالق البارىء جل شأنه . ومن أمثلة هذه السنن قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »[2] . والآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن المترفين هم الآلة المسخرة بيد القدرة الإلهية لتدمير قرية وإفناء أمة . والمترفون هم الذين يجمعون بين النعمة والرخاء والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها وقد أبطرتهم النعمة وأطغتهم الشهوات ؛ ووسيلة هؤلاء الفسوق ، وهو الخروج عن طاعة الله جل شأنه .

والآية الكريمة « وتلك الأيام ... » نزلت بعد غزوة أحد وقد كان النصر فيها للمؤمنين . ولكن أسباباً وقعت حوّلت ميزان النصر وغيرت اتجاه الغلبة ، وأضاع المسلمون النصر وكان الأمر لهم ، فأصبح عليهم والأسباب التي أدت إلى ذلك جلية فيما أخبر

---

(١) آل عمران : ١٣٧ .

(٢) الإسراء : ١٦ .

به تعالى من أن الله صدق المؤمنين وعده فأخذوا بقتل المشركين وإخماد أنفسهم ... ثم حدث أمر يوجز القرآن الكريم ذكره . قال تعالى : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة »[1] .

حين وقع الفشل ـ وهو الكسل والضعف والتراخي والجبن والتنازع والعصيان وإرادة الدنيا ـ أضاع النصر أصحاب رسول الله .

وهكذا ترشد الآيات الكريمة إلى أن لله سنناً اجتماعية تنطبق على المجتمعات الإسلامية وعلى غير المجتمعات الإسلامية ، وإن هنالك شروطاً إذاأضاعتها الجماعات المسلمة فقدت قيادتها وأسلمت القيادة إلى أعدائها .

ولكن الآية الكريمة ترشد إلى أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول ، وهو مندرج في سنن الله جل شأنه ونظامه الكوني وهو أن المحن والشدائد التي تصيب المسلمين ليست شراً كلها وحين يغلب المسلمون ويدال عليهم فليس معنى ذلك أن الأمة قد تودع منها .

إن للشدائد غرضاً هاماً جداً ، أن توقظ العيون النائمة ، وتؤجج الضمائر الهادئة ، وتثير إيمان ذوي الإيمان ، فتدفعهم إلى الوقوف أمام الباطل لمناجزته .

---

(١) آل عمران : ١٥٢ .

وهنا تقدم الضحايا ويتقدم الشهداء ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويعلو صوت الإيمان وتشتد الأمور حتى يدرك الخطر الجموع . وحينما يضيق الخناق ويشعر الأفراد جميعاً بشدة وطأة الأعداء ، تنطلق الصيحات وتشرئب الأعناق ، لترى تباشير النصر وتطلّع القلوب لتنظر آفاق الأمل ، وهنالك تتقدم طلائع الإيمان ، تستقبل الموت وتحمل في أعماق نفوسها الثقة والرجاء والأمل .

وهنالك في مثل هذه الشدائد ، يبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالاً شديداً ، وهنالك تمحص القلوب وتنقى الضمائر ويزداد آمنوا إيماناً .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » هذه الكلمات اليسيرة تنطوي على تقلبات الأيام وعاديات الزمان ، وتشير إلى التاريخ الطويل في حساب الناس حين تصل أمة إلى الذروة ، ثم تطرأ عليها الطوارىء ، وتعصف بها العواصف ، فتتغير القلوب على مر الزمن ، وتتبدل النفوس وتنحدر الأمة ثم تفيق من غفوتها ، فإذا هي مستذلة مغلوبة مقهورة .

فمداولة الأيام يقدرها الله جل شأنه لحكم يعلمها جل شأنه .

وقد أشاد تباركت أسماؤه بذكر صنفين من الناس يعلو شأنهم في أيام الشدائد وتسمو مكانتهم أولئك هم المؤمنون والشهداء . قال تعالى : « وليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » .

وإن الآية الكريمة لجديرة بأن تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى إدراك مراميها والعمل بهديها إنها نداء للمؤمنين ليعلم الله إيمانهم ، وللشهداء ليتقدموا إلى منازلهم .

الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال التي يدال فيها على المؤمنين ويغلبون على أمرهم ؛ فلها أغراض كريمة في ثنايا هديها وإرشادها .

الغرض الأول : أن يعلم المؤمنون أن لله سنناً لاتتخلف ، فالعاملون المجدون يجنون ثمرات عملهم ، والخاسرون الفاشلون الذين لايعملون ، وينتظرون فرج الله ويرجون بزعمهم نصراً دون أن يبذلوا جهداً أو مالاً أو نفساً ؛ هؤلاء يكذبون على أنفسهم ويخادعونها ، ويتجاهلون أن نصر الله لا يكون إلا لمن ينصر الله .

والغرض الثاني : أن يعلم المؤمن أن الشدائد التي تصيب المؤمنين يريد الله جل شأنه بها تمحيص قلوب المؤمنين بتنقية الضمائر من الأغراض الدنيوية ، والمنافع الشخصية،وتطهير النفوس من أوشابها برجوعها بسبب الشدائد إلى ربها وإخلاصها لخالقها . وبعد ذلك كله يريد الله جل شأنه أن يتبارى المؤمنون ويتقدم المخلصون الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله »[1] . هؤلاء هم طلائع الخير ورواد الحق ووسيلة إنقاذ الأمة .

---

(١) البقرة : ٢٠٧ .

إن الشدائد تخرّج أبطالاً ، وتقدم رجالاً ينسون أنفسهم ومصالحهم ويدعون أغراضهم ويعملون في سبيل الله ، ويرضى عنهم الله جل شأنه ، ويرضى عنهم الناس ، ويعلي الله شأنهم ويكثر أتباعهم وينصر الله بهم ، كل هذه المعاني مندرجة في قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء» وفي قوله : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

والغرض الثالث من هدي الآيات الكريمة : ألا يتسرب الوهن في الساعات الرهيبة الى قلوب المؤمنين ، ولا يغلب عليها الحزن ولا يجد اليأس إليها سبيلاً .

إن الوهن من صفات النفوس الضعيفة التي عدمت ثقتها بنفسها ، وضعفت صلتها بخالقها ، ولم يكن لديها ذلك الإدراك النافذ والنظر الثاقب والرأي الحصيف ، ولم يكن لديها ذلك الضمير النقي الخالص ، وتلك العزيمة الماضية ، تلك هي النفوس التي غلبت عليها شهواتها .

أما النفوس المؤمنة : فهي النفوس الواعية اليقظة ، المدركة النقية الخالصة ، التي تؤمن أن الأمور مهما عظمت فهي حقيرة بجانب عون الله ، وهذه النفوس هي التي غلب عليها إيمانها ، فلا تهن ولا تحزن وتؤمن أنها الغالبة المستعلية بإذن الله : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[1] .

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

لا يجوز للمؤمن أن يتسرب الوهن إلى قلبه. والسبيل لذلك أن يكون مع الفئة المؤمنة ، تلك الفئة التي ذكرها رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، ووصفها ليعلم الناس ما يجب أن يكونوا عليه في أيام الشدائد والخطوب . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » . والرواية الثانية في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» .

وكثير من المسلمين يظنون بأنفسهم خيراً ، ويحسبون أنهم من الطائفة التي ذكر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، ولكن المؤمن فطن يحسن محاسبة نفسه ، ولا تغره دعاويها ، وفي هذه الروايات الثلاث وصفت الطائفة بأنها تقاتل على الحق وبأنها غالبة .

وأقول : أفراد هذه الطائفة هم المؤمنون وهم الشهداء الذين ذكر الله تباركت أسماؤه ، وهؤلاء لا يهنون ولا يحزنون وهم الأعلون .

الغرض الرابع في هدي الآيات الكريمة : أن يعلم المؤمنون أن أيام الشدائد لابد فيها من تضحيات بالأموال والأنفس . قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » [1] .

---

(١) آل عمران : ١٤٢ .

ويتصل بهذا ، أن يرى المؤمن الحياة رخيصة في سبيل الله ، وأن يصدق في عدم خوفه من الموت ، فإذا لدعى أنه لايخاف الموت في ساعات الأمن ، فيجب أن يصدق قوله فعله في ساعات اللقاء . قال تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »[1] .

ويؤكد عدم الخوف من الموت قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ،ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين »[2] .

الغرض الخامس في هدي الآيات الكريمة : في الساعات التي يدال فيها على المؤمنين ، إنه لا عذر للمؤمنين في قولهم : ليس لنا قيادة نقاتل تحت لوائها ، ولا نعرف جماعة نطمئن إلى الانضواء تحت رايتها ، لا عذر لهم في ذلك ، لأن أصحاب رسول الله حين قعد بعضهم وتركوا القتال في غزوة أحد ، حين نادى مناد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد مات ، عنفّوا على قعودهم وعوتبوا عتاباً شديداً . قال تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسول أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله

---

(١) آل عمران : ١٤٣ .

(٢) آل عمران : ١٤٥ .

الشاكرين »[1] . إنها تربية مثلى للنهوض بالأمور الكبيرة ولحمل التبعة ، يكلفها كل فرد من أفراد المسلمين ، وهو مؤمن في قرارة نفسه أن عليه أن يقوم بالمهمة مهما عظمت ولو كان وحده .

والغرض الأخير في هذه الآيات الكريمة : التأكيد على وجود الطليعة وأنصار الحق الذين يتقدمون ويستبقون إلى الخير ، وصفة هؤلاء أنهم ربيون غلبت عليهم النسبة لله جل شأنه لإيثار جانب الله عندهم على كل جانب سواء ، لا يهنون ولا يضعفون ولا يستكينون . قال تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم : إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين »[2] .

إن الأمة لا ينقذها في مثل هذه الأيام إلا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء، تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين ، تدعو إلى الله وتحتمل أنواع الأذى في سبيل ذلك .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) آل عمران : ١٤٦ ــ ١٤٨ .

قلة تنفيذ الموقف

أ ــ بين الأمس واليوم :

طمس مكر الاعداء أيام الرسول الكريم وبـاء كيدهم بالإخفاق الذريع وكان ذلك شينهم في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، حتى إذا أدركت الخلافة الثانية العام الثالث عشر من الهجرة تمت محاولة آثمة انتزعت الفاروق رضي الله عنه من بين أصحابه وفتح باب الفتنة كما جاء في حديث يرويه مسلم عـن حذيفة . « قال حذيفة : فقال عمر : ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر ــ يعني الفتن ــ قال حذيفة فقلت : ما لك ولهـا يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال أفيكسر الباب أم يفتح ؟ قال قلت : لا بل يكسر . قال : ذلك أحرى ألا يغلق أبداً .

قال فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قـال : نعم كما يعلم أن دون غد الليلة ، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط . قال فهبنا أن نسأل حذيفة من البـاب فقلنا لمسروق سله فسأله فقال عمر » .

وهكذا كان عمر حاجزاً يمسك الجماعة المسلمة أن تغشاها الفتن التي تموج كموج البحر .

وبدأ العدو غزوه المادي بمحاولة احتلال بلاد المسلمين وكان ذلك في الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر •

وارتد العدو بعد هذا الكفاح الطويل المرير على أعقابه خاسراً ولكن هذه الحروب الطويلة جعلت العدو يعرف نفسه ويكتشف ضعفه ويستمسك بوحدته جاعلاً محور نضاله عداءه للاسلام ، ولقد عرف في هذه الحروب الطويلة ما عند المسلمين وعاد الى بلاده ينقل عن المسلمين بذور التفتح والنهضة ، لقد أيقن بعد أن رأى ما عند المسلمين أنه ليس لبشر أن ينصب نفسه على الناس مشرعاً يحل لهم ما يشاء ويحرم عليهم ما يشاء ، وعزم الغرب منذ ذلك الحين على التخلص من سلطات الكنيسة كما عزم ألا يجعل لانسان على عقله سبيلا وبذلك أخذ يسترجع مكانته الانسانية •

ولقد بدأت النهضة الاوربية بعد اتصال الغرب بالشرق • جاء في كتاب « الحضارة الأوربية » لمؤلفين غربيين : (في خلال قرنين نقل الى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه •• واخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوربة الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر •

ولم يكن تسربها من أثر الغزوات الصليبية كما يسبق إلى الخاطر ـ هكذا يقول هؤلاء ـ ولكنه جاء من طريق صقلية إلى ايطاليا ومن اسبانيا المحمدية إلى اسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا . وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظى إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الانكليز ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في اسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية . وعلى هذا النحو كانت أوربة قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الاغريقي والعربي بحذافيره . واصبح تدريس العلم في الجامعات الحديثة من الأمور المقررة المتفق عليها ...) .

وكانت من بعد ذلك المخترعات الحديثة التي أخذت أصولها عن المسلمين ... وعاد هؤلاء لقتال المسلمين ثانية بأسلحة لا عهد للمسلمين بها . يقول توينبي : « وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن ، لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامي ولكن أمكن تطويقه تماماً . ففي أواخر القرن السادس عشر واوائل السابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة .»[1]

وفي بداية منتصف القرن التاسع عشر تم للإنجليز الاستيلاء على الهند كما تم في السنة نفسها استيلاء الفرنسيين على الجزائر ،

---

(١) مختصر دراسة التاريخ لتوينبي ـ ج ٣ ـ ص ٣٦٠ .

ومن قبل هاتين احتلت هولندا في بداية القرن السابع عشر جـزر الهند الشرقية ـ أندونيسيا ـ .

ولكن العدو ما بلغ من احتلاله ما يريد من شفاء غيظه فلقد ظل المسلمون مسلمين على رغم الاحتلال بل لقد كانت رؤية العدو في البلاد الإسلامية تثير ثائرة المسلمين وتعيد معاني النخوة والنجدة إلى قلوبهم وكانت دافعاً قوياً إلى ظهـور البطـولات وتقديـم التضحيات .

لم يبلغ العدو ما يريد بل لقد كان وجوده في بلاد المسلمين يكبده جهوداً كبيرة وخسائر لا تطاق .

ولقد فطن العدو أن الأمر الهام ليس احتلال بلاد المسلمين ولكن الأكبر منه أهمية تغيير قلوب المسلمين وتضليل عقولهم ، وهنالك بدأت سياسة أخرى ... بدأت سياسة الجامعات والبعثات والاستشراق والتبشير بالنصرانية . يقول في هذا الشاعر الهندي أكبر إله أبادي لقد أخطأ فرعون في تقتيل الأبناء واستحياء النساء، ولو علم شيئاً من السياسة الحديثة لافتتح لهؤلاء الذين قتلهـم المدارس،وتوصل بذلك إلى مايريدويسمى «ناشر العلم والفضيلة» .

لقد بلغ الضعف بالمسلمين وشدة النكاية بهم أن وصل الأعداء لا إلى الدس في صفوف المسلمين فحسب ، بل إلى محاولة تغيير عقولهم ونفوسهم أي أن العدو الخارجي انتهى إلى مس العامل الداخلي والتأثير فيه وذلك غاية ما يمكن أن يصل إليه العدو من

النكاية بعدوه . فأبناء المسلمين في كل الأقطار الإسلامية ينشؤون كما يريد أعداؤهم . وحين يوجد في المسلمين من ينذر بخطر أو ينبـه إلى غائلة فمن الصعب أن يصل صوته وسط الضجيج والعجيج الذي تثيره منظمات العدو ومخططاته ، بل يخفت صوته قبل أن يرتفع ، أو يتلاشى بين الموجات المشوشة المفسدة .

واسجل ههنا للتاريخ وللعبرة بعض الصيحات التي اطلقها أصحابها باخلاص عميق ولكنها ذهبت ادراجاً :

في الثامن عشر من ذي القعدة ١٣٦٥ أي قبل ثلاثين عاماً قبل أن توجد إسرائيل كتب الاستاذ حسن البنا عليه رحمة الله كلمة نقتطف منها ما يلي :

قال رحمه الله : « لا ندري إلى متى يظل الساسة في مصـر على جهل تام بالحقائق القريبة بل القريبة جداً . وما ندري إلى متى نظل مخدوعين بالتعاليم الاستعمارية التي شوهت الحقائق التي بين أيدينا وتعمدت إخفاء الكنوز الدفينة المنشورة في كل مكان من هذا الوطن الغني القوي العزيز » .

إلى أن يقول : « اكتب هذه بمناسبة ما ورد في بيان صدقي باشا على لسان أحد الساسة المصريين من التعبير عن سيناء المباركة بلفظ ــ برية سيناء ــ . ووصفها بعد ذلك بأنها أرض قاحلة ليس فيها ماء ولا نبات إلا أربعة بلاد جعلت للتموين وقت اللزوم » .

يقول : « وقد أثار هذا المعنى في نفسي سلسلة المحلولات التي قام بها المستعمرون منذ أن احتلوا هذه الأرض ليركزوا هذا المعنى الخاطىء في أدمغة السياسيين المصريين وفي أبناء سيناء أنفسهم ، فأخذوا يقللون من قيمتها وأهميتها ويضعون لها نظاماً خاصاً في التعليم والتموين والحكم والإدارة ، ويحكمها إلى العام الماضي فقط محافظ انكليزي يعتبر نفسه مطلق التصرف في كل مقدراتها » .

إلى أن يقول : « مرت بنفسي هذه الخواطر جميعاً فأحببت أن أنبه الساسة الكبار والساسة الصغار وأبناء هذا الشعب إلى الخطر الداهم العظيم الذي تخفيه هذه الأفكار الخاطئة ...

... إن سيناء المصرية تبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الأفدنة أي ضعفي مساحة الأرض المزروعة في مصر ، وقد كشفت البحوث الفنية في هذه المساحات الواسعة أنواعاً من المعادن والكنوز فوق ما يتصور الناس ، واكتشفت فيها بعض آبار البترول حديثاً ، ويذهب الخبراء في هذا الفن إلى أنه يمكن أن يستنبط من سيناء من البترول أكثر مما يستنبط من آبار العراق الغالية النفيسة . وأرض سيناء في غاية الخصوبة وهي عظيمة القابلية للزراعة وفي الإمكان استنباط الماء منها بالطرق الإرتوازية وإنشاء بيارات يانعة على نحو بيارات فلسطين تنبت أجود الفواكه وأطيب الثمرات وقد تنبه اليهود إلى هذا المعنى ووضعوه في

برنامجهم الإنشائي وهم يعملون على تحقيقه إذا سنحت لهم الفرص ، ولن تسنح بإذن الله » .

وبعد ستة أعوام من كلمة الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ أي في عام ١٩٥٢ م يطلق الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ صيحة ثانية نقتطف منها ما يلي :

« وفي هذا الوقت تقترب إسرائيل يوماً بعد يوم من حدود سيناء المصرية إسماً وإن كانت مصر لا تعرف عنها شيئاً ، لأن السياسة اليهودية ـ الإنجليزية عزلتها عن مصر طوال فترة الاحتلال . ولم يكن هذا العزل شيئاً عارضاً ولا أمراً غير مقصود ، وإنما كان وفقاً لسياسة بعيدة الغور تتفق مع اطماع اليهودالعالمية.

إن شبه جزيرة سيناء تشتمل على أقدس مقدسات اليهود .. ويربى أبناؤهم على عقيدة أن جزيرة سيناء هي قلب مملكتهم الموعودة وعلى هذا الأساس هم يعملون منذ أجيال . وفي سنة ١٩٠٦ م وفدت على مصر لجنة إنكليزية يهودية قضت في سيناء خمس سنوات كاملة تفحص عن كل شيء فيها وتنقب عن المياه الجوفية والأراضي الصالحة للزراعة والمعادن والطبيعة الجيولوجية بصفة عامة والمناخ والطرق والأهمية الاستراتيجية وعادت ومعها تقرير شامل يثبت أن سيناء صالحة لاسكان مليون نفس وإعاشتهم» .

إلى أن يقول : « وفجأة .. وفي هذه الظروف تطلع علينا نغمة لا يدري مبعثها إلا الله ثم الراسخون في العلم من اليهود

والصليبيين ، نغمة تحديد النسل .. لماذا ؟ لأن مصر تضيق بسكانها ، ولأن موارد الرزق لا تنمو بنسبة نمو السكان ولأن الأرض الزراعية محدودة ...

... فهل استنفدت مصر وسائلها لزيادة مرافقها ؟ إن في مصر من الموارد والمرافق ما يكفي لإعاشة ضعفي سكانها كما يقول بعض الخبراء . وأمامنا مثل واحد في سيناء فهي كافية لإعاشة مليون من الناس ، لو وجدت من يعمرها ويرد إليها الحياة.

فلماذا يتجه التفكير أول ما يتجه إلى وقف نمو السكان ؟ ».

هذه الصيحات لم تفد المسلمين شيئاً لأن المسلمين في حالة طفولة اجتماعية . والطفولة لا تشعر بالخطر ، ولا تستطيع أن تكون بعيدة النظر . إن التربية التي يتلقاها المسلمون اليوم في المنازل والمدارس والمجتمع تؤدي إلى سطحية في التفكير وأنانية في الضمير وتردد في العزيمة .

ب ـ سبيل الإنقاذ :

وليس هنالك من سبيل إلا بناء الكيان الإيماني في قلوب المسلمين .

والمستوى الايماني لا بد له من مستوى فكري يعتنقه ومستوى وجداني يحتضنه : أعني أن الذي اختل ميزان تفكيره واضطربت القيم في وجدانه ، لا يمكن أن يكون مؤمناً صادقاً ؛ بل هو حين يرث الإيمان من أبويه يخل بشروط الإيمان ويتنزل به إلى مستواه المتدني .

وهكذا نجد كثيرين من المؤمنين يتنزلون بالإيمان إلى مستواهم الفكري والخلقي فيحسبون أن اداء العبادة يجزىء وإن اقترن بالغش والخيانة وإضاعة الحقوق .

وليس بأقل ظلماً من هؤلاء أولئك الذين يستمعون إلى صيحات الخطر وما يتنزل على المسلمين في كل بقعة ومكان من أذى وشر ، ثم يصمون آذانهم عن سماع كل ذلك .

إن الشروط الفكرية والخلقية هي التي تجعل صاحبها في مستوى يدرك فيه الحق إدراكاً يمتاز عن إدراك الناس جميعاً ، والمستوى الوجداني هو الذي يحمله على الإذعان لكلمة الحق والإقرار بها وإن تبع ذلك ما تبعه من سخط الناس وكراهيتهم ونقمتهم ، كذلك كان الصحب الكرام ، وكذلك كان سحرة فرعون حين قالوا لفرعون : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض »[1] .

فإذا كان لا بد للمستوى الإيماني من مستوى فكري ومستوى وجداني فهل نربي التفكير والضمير أولا ثم نعرض الإيمان ؟ لم يفعل ذلك عليه الصلاة والسلام ، ولكنه عرض الإيمان قبل كل شيء ، لأن كلمة التوحيد هي كلمة الفطرة ولأن الفطر البريئة تتمثل الإيمان دون توطئة أو مقدمة . وهذا الإيمان وسيلة لدفع التفكير والوجدان ليبلغ أعلى المستويات .

---

(١) سورة طه ـ الآية ٧٢ .

عرض التوحيد عليه صلوات الله وسلامه على أصحابه فقبله أصحاب الفطر النقية طوعاً لاكرهاً وحملوا دعوته وصبروا على تحمل الأذى في سبيله وأمثال هؤلاء أبو بكر وعمار وبلال ومصعب وصهيب والسابقون الأولون .

وعجب أناس من المشركين وأخذتهم الدهشة والحيرة لصبر هؤلاء المؤمنين وصدقهم فكان ذلك تحدياً لعقولهم وإيقاظاً لقلوبهم، كانوا يحسبون المؤمنين كاذبين في دعواهم فلما رأوا صدقهم وصبرهم وصلابتهم في الحق ، ايقنوا أن الأمر جد ليس بالهزل ، لقد كانوا يشهدون كل صباح ومساء عذاب ياسر وعمار وبلال وصهيب . وهؤلاء المعذبون صامتون هادئون ماضون في احتمال الأذى واحتمال الدعوة التي حملوها . ما كانت تفعل هذه المشاهد في نفوس الشبان من قريش ؟ لقد صدم عمر — رضي الله عنه — بصدق أخته وقوة عزيمتها حين آمنت بالله فطلب الصحيفة من يدها في ساعة تفتح فيها وجدانه وتطلع فيها قلبه لمعرفة الحقيقة،فانكشف له الحق ورأى النور واعتنق الإسلام واستجيبت دعوة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه.وهكذا آمن الرعيل الثاني متأثرين بصبر صاحب الدعوة وأصحابه ثم صدم أبطال في الجاهلية لم يتعودوا الهزيمة صدموا بقوة أيقنوا أنها لا تغلب.من هؤلاء: خالد وعمرو ابن العاص ، وهؤلاء كانوا الرعيل الثالث ثم كان الرعيل الرابع أبو سفيان وصحبه حين رأوا قوة الإسلام قد جاوزت ما كانوا يقدرون .

وهكذا آمن هؤلاء جميعاً : آمن الفريق الأول منهم، لما كان يحمل من صفاء ونقاء أدرك به الحق سريعاً . وآمن الآخرون تبعاً لإخوانهم ولحاقاً بهم بعد صدمات أيقظت قلوبهم ونبهت ضمائرهم، ثم كان عاملاً قوياً في تمسكهم بالحق جميعاً وإدراكهم له وطلبهم إياه . وكان الإيمان عاملاً في نقلهم نقلة بعيدة جداً في مراتب الانسانية ، وبعد هؤلاء دخل الناس في دين الله أفواجاً .

الدعوة الإيمانية لاتنتظر مقدمة ولاتسبقها تربية ذات مراحل طويلة ، وإن كان مما يساعد على تقبلها عقل ذكي وقلب لوذعي وضمير نقي ، ولكنها تعرض على الناس في الحال فلا يخلو أن يوجد في الناس صفوة يتقبلونها تقبلاً تاماً ثم يتعاقب الناس في قبولها .

وهكذا كان سبيل الاصلاح اليوم وجود الرعيل الأول الذين يبايعون على القول بالحق أينما كانوا لايخافون في الحق لومة لائم .

وإن المشكلة الكبرى التي نعانيها اليوم هي تصحيح إيمان المسلمين تصحيحاً يتناول الفكر والوجدان والسلوك والعمل وذلك قبل أي اصلاح آخر تأسياً برسول الله عليه صلوات الله وسلامه . إن كثيرين ينادون بأنواع من الإصلاح : تعليمي واقتصادي وصحي واجتماعي وما إلى ذلك ... ولم يبدأ عليه صلوات الله وسلامه بشيء من ذلك ، ولكنه بدأ بالاصلاح الإيماني فكان كفيلاً بأن يتبعه كل إصلاح ، ولا نعني إيقاف هذه الأنواع

من الإصلاح ، ولكنا نعني أن يكون منطلقها ودعامتها والمهيمن عليها دعوة الإيمان .

وإذا لم يبن الإصلاح على إيمان صحيح فليس بمأمون العاقبة، وهذه المدنية الغربية خير مثال لذلك ، ولقد قطعت في سبق المجتمعات الأخرى أشواطاً بعيدة جداً في تربية أبنائها الفكرية والخلقية والاجتماعية والسلوكية ، حتى غدا أبناؤها أصدق من أبناء المسلمين وأخلص لمبادئهم وأصبر على الشدائد وأثبت على الدأب في العمل وأوفى بالوعد ... ولا يفوتنا أن نقول إن كل هذا الذي ذكرنا من أخلاقهم إنما هو في حدود بلادهم ، فإذا خرجوا منها انقلب الصدق كذباً والوفاء غدراً والأمانة كيداً ومكراً وهذه فلسفتهم في الحياة ، فلسفة نفعية برغماتية تنادي بأن الحق والخلق يستمسك بهما ماكانا نافعين كافلين لمصالحهم .

ولقد اكتشف هؤلاء من أسرار هذا الكون ما اكتشفوا وعرفوا من سننه ما عرفوا ، وبذلك خضع لهم البر والبحر والسهل والجبل والأرض والفضاء وسيطروا على العالم سيطرة ما عرف التاريخ لها مثيلا ، وهم مع كل هذا يعترفون بأن ما عرفوه ليست إلا قطرة من بحار المعرفة الزاخرة ،وهم يقرون بأن حضارتهم هذه حضارة جهنمية لا تعرف رحمة ولا تمازجها انسانية .

وويل للعالم من تلك الساعة الرهيبة التي يتفجر فيها الحقد الإنساني ويصطلي الناس بنيران النفوس اللئيمة .

يقول الأستاذ أبو الاعلى المودودي :

(إنه قد سلط على الأمم الغربية شيطانان قويان ، يجرانها إلى ما فيه الهلاك . أولهما شيطان قطع النسل والآخر شيطان القومية ، فالشيطان الأول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها . وأن الاول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنسالهم بأيديهم .

وأما الشيطان الآخر فقد سلب أكابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح ، فهو يبعث فيهم نزعات الأثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع ، وبذلك يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة ، ليذيق بعضهم شدة بعض . وهذا أيضاً من صور النقمة الإلهية « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » [1] ؛ فهو يهيؤهم لانتحار عظيم لا يرتكبونه على مهل ، بل سوف يساقون إليه في آن واحد .

وهذا الذي أقوله لا مبالغة فيه ، فإن الاستعدادات الحربية التي لا تزال تباشر الآن في أوربا وأميركا واليابان للحرب الآتية ترسل هزة الذعر والخوف في نفوس أولي الأبصار من تلك الأمم نفسها ، فهذا مستر سرجل نيومان الذي كان عضواً في الهيئة الجندية الأميركية سابقاً ، قد كتب مقالاً عن صورة الحرب الآتية ،

---

(١) سورة الأنعام ــ الآية ٦٥ .

يقول فيه : إن الحرب الآتية لن تقتصر على الجنود المتحاربين بل هي ستكون إفناء عاماً لا تنجو منه النسوة ولا الأولاد ، وذلك أن عقول العلماء الكيماويين قد نزعت وظيفة الحرب والقتال من الجنود الانسانيين وفوضتها إلى المركبات الكيميائية وآلات الحرب التي لا روح فيها ولا شعور ، والتي لا تميز بين محارب وغير محارب ، فالآن لا يتحارب الفريقان في الميادين أو في القلاع ، بل ستقع حربهما في المدن والقرى ، لأن قوة العدو الأصلية ـ حسب النظرية الجديدة ـ لا تكون في جنودها بل في بلادها المعمورة وأسواقها التجارية ومصانعها الصناعية (١) .

يعترف هؤلاء بكل هذا ويعترفون بأكثر منه ، وإن سبيل النجاة ، نجاة المسلمين خاصة والناس جميعاً العودة إلى بناء الكيان الإيماني .

الإيمان هو الرجولة هو الشمم والإباء والاستعلاء على الباطل والشر والفتنة ، وهو مقترن بالنفوس الكبيرة التي لا تعرف رياء ولا نفاقاً ولا مداراة للباطل ولا محاباة فيه .

وتربية الإيمان هي تربية القوة التي تهز الدنيا بأسرها وتهز قلوب الطغاة والجبابرة .

---

(١) أبو الأعلى المودودي ـ نحن والحضارة الغربية ـ ص ٦٦ ـ ٦٨ .

هذه القوة إنحياز إلى جانب الله جل شأنه ومنازلة لأعدائه وحمل للواء الحق ودفاع عن دعوته ، ومقارعة لأهل الباطل واستهانة بمكرهم .

وهذه القوة ثقة بالله واعتماد عليه ويقين بنصره وطمأنينة إلى حكمه وتوكل عليه ونداء له وحده .

وهذا الإيمان يهيمن على جنبات نفس هذا المؤمن ، فلا يكون له همٌ ولا شاغل إلا هو .

وهذا المؤمن يعدل المئات من الرجال بل الألوف .

جـ ـ القلة المؤمنة :

ووجود هذا النوع من المؤمنين في أمة ، كفيل بسريان الروح الإيمانية إلى الجماعة كلها وتغيير وجهة الجماعة وإبدالها بضعفها قوة وبجبنها اقداما .

والامثلة كثيرة من ذلك : ما ذكره تباركت أسماؤه في سورة البقرة قال تعالى : « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا . قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ! فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم . والله عليم بالظالمين »[1] .

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٤٦ .

تولت الأكثرية الغالبة ، وبقيت القلة المؤمنة ، وتمت التصفية الأولى واتقي المؤمنون واستبعد الظالمون • ثم كانت تجربة ثانية وضعها القائد ليختبر عزيمة أصحابه وصبرهم وقد ضاع كثيرون في هذه التجربة من القلة الذين بقوا ، ولم يفز في التصفية الثانية إلا قلة من القلة كانوا من الصبر والطاعة في المكان المناسب، وهؤلاء القلة حين لاقوا أعداءهم وكثرتهم قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده وهنالك انبرت قلة مؤمنة من هؤلاء فثبتت وهدأت النفوس : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » (١)• كان لهؤلاء موقفهم في الساعة الحرجة ولم يكن المعول على قوة حجتهم فحسب، ولكن كان المعول على صدق لهجتهم وإخلاص قلوبهم •

وهكذا كان الأمر في موقعة بدر حين قال فريق من المؤمنين : والله مالنا طاقة بقتال العدو فكان الذين يظنون أنهم ملاقو الله أبو بكر وعمر حين قالا فأحسنا ، ثم المقداد بن عمرو ، ثم سعد بن معاذ • وقد خلد التاريخ كل كلمة من كلماتهم • أما المقداد فقال:

(يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك • والله لا نقول لك كما قلت بنو اسرائيل لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »(٢) • ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

---

(١) سورة البقرة ــ الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة المائدة ــ الآية ٢٤ .

مقاتلون • فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنـا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه) •

وأما كلمة سعد فهي : (يا رسول الله آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله) •

وقد استبشر عليه الصلاة والسلام بعد كلمة سعد وقـال لأصحابه : سيروا وأبشروا ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم •

نفحت القلة المؤمنة الجماعة كلها بروح الايمان والاقدام فذهب الحذر وغشى المؤمنين غاشية من الامنة والطمأنينة وانقلبت روحهم المعنوية الى روح عالية قوية بالغة اقصى درجات القوة •

هذان مثالان لما تفعل القلة المؤمنة في نفوس الجماعة والأمثلة لا تحصى ، وإن مهمة النخبة المؤمنة هي إنقاذ جماعتها كلما عصفت بها العواصف واحاطت بها الكوارث •

وليس في المجتمعات الإسلامية اليوم أناس بلغوا هذه الدرجة من الإيمان ولكن المسلمين ينفحون بين آونة وأخرى بأفـراد يناضلون في سبيل الحق •

وقد جاء في صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » .

ولقد كثر الزيف حتى ادعى كثيرون ما ليس لهم وخدع كثير من أبناء الأمة بدعاة مزيفين وعز العثور على الدعاة الصادقين المؤمنين ، والتبس الأمر واختلط الحابل بالنابل وعمي أمر الرجال على كثيرين ، وعمر رضي الله عنه في عصره الزاهر يشكو ضعف معرفته بالرجال ويثني في ذلك على أبي بكر ويقول : رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال .

والمؤمن يحرص على لقاء أفراد هذه الطائفة وإن قل عددهم ويحرص أن يكون معهم ويعد فيهم .

وسبيل الإصلاح ينطلق في رأينا من هذه الطائفة ، فإذا وجدت جماعة ثم نمت وترعرعت وكثر أفرادها وعز سلطانها ، كان لها الأثر الطيب في جميع المجالات ، وهؤلاء قد جمعوا إلى حصافة الرأي وبعد النظر معرفة بأحوال الناس وما يجري في المجتمعات إلى جانب إيمانهم العميق وصلتهم المتينة بالذي خلقهم .

إذا وجد هؤلاء وجب أن تكون منهم البطانة الصالحة التي تحيط بالمسؤولين ووجب أن يكونوا في كل مجال وفي كل موضوع يقيمون الحق ويلتزمون الجادة ، وأعظم مجالات الحياة أهمية التعليم والتوجيه ، وصفة هؤلاء أنهم ليس همهم الدنيا ويتوكلون على الله حقاً لا يهابون الموت ولا الشدائد في سبيل الله .

وصفة هؤلاء أيضاً أن اهتمامهم بمصاب الأمة أكبر من اهتمامهم بمصابهم ، بل هم ينسبون أنفسهم للرسالة التي نذروا أنفسهم لها ، ومن هؤلاء صلاح الدين عليه رحمة الله • كان كالوالهة الثكلى فقدت وحيدها يتقلب في فراشه فلا يجد النوم سبيلاً الى جفنيه ، وكان يشتد به المرض فيلزمه الفراش وكان مرضه مساوقاً لما يسمعه عن أخبار العدو فاذا حان وقت المعركة وكان في فراشه وقد ثقل عليه المرض أمر أن يشدوه إلى ظهر حصانه فاذا فعلوا اعتدل وعوفي ونسي العلة وقاد الجند ونزل المنازل الخطرة وسلك المسالك الوعرة وأنزل بالعدو الضربات القاصمة •

يقول الأستاذ عبد العزيز سيد مؤلف كتاب « ايام صلاح الدين » : (إنه لفارس ارتبط بمتن فرسه ولم يفارقه كمنزل متنقل أكثر من ربع قرن •

ولقد اعوج ساقاه من كثرة ركوبه فكان إذا مشى على الأرض عرج فلم يرد أن يراه الناس إلا راكبا ، كما لم يره الناس منذ انفتحت عليه أبصارهم قد خلع لباس الجندي إلا مرة واحدة في دمشق وكان ذلك وفاته بأيام •

هو بطل الفروسية الحقيقي ولم يخطىء الفرنجة حين فتنوا به فجعلته زوجة الملك في إحدى القصص الفرنسية مثال الرجولة الكاملة ، فأرادت من أجله الفرار من زوجها اليه) •

من للمسلمين من يحدب عليهم كحدب صلاح الدين •••

والمؤسف أن الأمة في مستوى المدرسين والداعين والموجهين تفقد الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر لهم ، ولأضرب مثلا بنفسي : لقد قضيت عمري بين قاعات المدرسة متعلماً ومعلماً ، وإني وايم الحق لأجد أيامي هزيلة ونفسي رخيصة لم ترتق عن مرحلة الطفولة ، ولم تبلغ درجة الرشد ولم تذق معاني الرجولة ولو طلب إلي أن اكتب تقريرا بشأن نفسي لقلت :

أ ــ انه ليس براض عن مستواه الإيماني ، ولا يرى أن مثل هذا المستوى يمكن أن يحدث تأثيراً واضحاً في طلابه .

ب ــ ليس براض عن عمله ولا يؤديه وهو واثق بأن السبيل التي يسلكها هي السبيل التي تؤدي إلى نجاة الأمة ، فلا المناهج ولا الطرائق ولا النظم التي يتخرج بها الطلاب بالتي تخرج للأمة رجالا أبطالا ، دعاة ، ولذا فهو يعتبر نفسه أجيرا يعمل ما يرضي صاحب العمل في سبيل العيش ، وربما يعجب كثيرون من هذا القول .

وعلى سبيل المثال نذكر ناحية واحدة من نواحي الضعف في التعليم ــ وهي كثيرة ــ : إن مجال التعلم قد فقد مثاليته فقداناً تاماً ، ذلك لأن التعليم والتعلم ليسا اليوم إلا وسيلة لكسب العيش ، وهذا المعنى أكبر ما أصيب به العلم في الأيام الاخيرة ولا سيما في البلاد الإسلامية . ولقد فطن الغربيون لذلك وكتبوا فيه كتباً كثيرة وجدّوا في إيجاد الوسائل لإيجاد طبقة من المتعلمين

تجعل هدفها من العلم العلم نفسه ، وقد نجح هؤلاء إلى مدى بعيد في إيجاد طلاب يغرمون بالعلم لذاته وفي ظني أن هـؤلاء ما أغرموا بالعلم لذاته ، ذلك أنهم أناس لا يؤمنون بالله أو يؤمنون به إيماناً ملتوياً منحرفاً ، وهم إنما أغرموا بالعلم ليكون وسيلة يدركون بها العظمة ، فهم يرضون دافع الاستعلاء في نفوسهم عن طريق ظهورهم في العلم • أما المسلمون فقد أصبح طلب العلم عندهم لغير الله فلم يكن له ذلك النور في القلوب ، ولم يكن المتعلم ليبالي بعد الحصول على الشهادة بالوقوف عند درجة ربما عادت به الى الجهل ، أو نزلت به عن الدرجة التي انتهى اليها ولا يبالي المتعلم بأنه أدى حق العلم أو لم يؤده •

ومن أجل ذلك ولأسباب أخرى لا تنتج التربية الحديثة في بلاد المسلمين أفذاذاً في العلم ولا رجالاً في الدعوة • إلا القليل

جـ ــ ولذا يتطلع كاتب هذه السطور بشوق كبير فيما يدعي ، إلى العمل خارج المعاهد الرسمية إلى العمل في المسجد فإنه أحرى به أن يؤدي إلى الثمرة المطلوبة ، وليس المراد دعوة السذج إلى المساجد ولكن المراد دعوة الجامعيين إليه • هذا جزء يسير من تقرير يكتبه مدرس عن نفسه ، وكيف ينتظر من عامل أن يؤدي عمله إلى أطيب النتائج وهو لا يؤمن بأن عمله يقوم على أقوم وأحسن منهاج •

فالسبيل لنجاة الأمة أن توجد الطائفة التي ذكرها عليه صلوات الله وسلامه في قوله : « ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » .

فهل من سبيل لوجود هذه الطائفة وظهورها واجتماعها ونموها وغلبتها ؟

والجواب : إن مجال العمل مفتوح وأبوابه واسعة جداً ولا يحتاج الأمر إلا إلى لفتة بسيطة يلتفتها القادرون والمصلحون .

لقد ألفت بعض البلاد الغربية أن يكون لديها مدارس خاصة لتخريج رجال القيادة . وهنالك مدارس ينشئها بعض رجالات الفكر يتبعون فيها منهاجاً خاصاً بعيداً عن المناهج التي ألفتها المدارس العادية ، يريدون من هذه المدارس تحقيق معان وإثبات نظريات وبيان ما تعانيه المدارس العامة من نقص وإخفاق .

وهنالك من أصحاب المال والثراء رجال يتطوعون بمبالغ كبيرة من المال لإنشاء معاهد على الوجه الذي يرغبون فيه ، والغالب في أمر هؤلاء أن يضعوا ثقتهم في عالم له شأنه ومكانته وإخلاصه حيث يضع خطة المدرسة ويشرف عليها .

ويكون لهذه المدارس الأثر الكبير في حياة الأمة ، وأريد أن أخلص من وراء هذا إلى حقيقتين :

أولاهما : المدارس والجامعات والمعاهد ، هي مكان قيادة الامة الى الخير أو إلى غير ذلك لا سمح الله .

الثانية : التربية هي وسيلة الإصلاح وليس هنالك وسيلة غيرها ، ولكن الوسائل تختلف ، فمنها الناجحة ومنها المخفقة وكذلك التربية .

ولا نستطيع أن نقول : إن معاهدنا العلمية قد نجحت في تخريج دعاة للأمة جمعت الشروط المطلوبة ، فهل يمكن أن نعيد النظر والفكر والتأمل في الموضوع نفسه ؟ لقد فكر رشيد رضا عليه رحمة الله أن ينشىء معهداً للدعاة ، وفكر الأستاذ حسن البنا أن ينشىء معهداً للدعاة . فهل يمكن أن يفكر أحد في إنشاء معهد للدعاة ؟ وليست الصعوبة في الإنشاء ، ولكن الصعوبة في الإنشاء على طراز معين .

إن كثيراً من الناس يقولون: إن المدارس موجودة ومعاهد الدعاة موجودة ، فما فائدة مثل هذا الكلام ! وأقول : لو أن الحكومة أنشأت مصنعاً لصنع السلاح أو الطائرات ، وأتت بالخبراء الماهرين والصناع الحاذقين ، وتم إنشاء المعمل وقدم إنتاجه فإذا هو إنتاج ضعيف لا يؤدي الغرض المطلوب ولا يوازي ما تنتجه المصانع العالمية ، ماذا يكون العمل في مثل هذه الحال ؟ الجواب ، الشك في خبرة الخبراء والطعن في مهارة الصناع ، والبحث في جهة من جهات العالم عن خبراء آخرين نستوثق من خبرتهم وندقق البحث والنظر في درايتهم ، ونحاول محاولة ثانية إذا كنا جادين .

ولعل المشكلة في أن مصنع الطائرات يمكن الحكم عليه بسهولة في نجاحه أو إخفاقه ، فإذا ارتفعت الطائرة وقطعت أجواء الفضاء بالسرعة المطلوبة واستطاعت أن تستمر في مهمتها دون خلل ، كان الحكم عليها بأنها صالحة وإن كان ههنا أيضا دقائق تخفى إلا على العالمين • اما مصنع الدعاة فقد يكون الحكم عليه في منتهى الصعوبة وقد يكون إصلاحه أشد صعوبة ولا تظهر نتائج الإخفاق إلا بعد حين من الزمن ، فالأطفال الذين ينشؤون في معاهد البعثات التبشيرية يحملون السموم والجراثيم الفتاكة في طيات نفوسهم ولا ينفثونها إلا حين يتسلمون مقاليد الأمة ، كل ما في الأمر أن نتائج إخفاق المعاهد العلمية تؤدي بعد حين إلى تردى الأمة باجمعها وتدهورها • وإن التغيرات العنيفة التي تمر بها البلاد الإسلامية في كل الاقطار ترجع اسسها إلى المعاهد العلمية ، وإن الدعوات الجديدة التي تعادي مبادىء الأمة ومثلها تحاول أن ترتع وتجد لها أعشاشاً ومكامن في دور العلم •

إن المعهد صورة للمجتمع ولكن المعهد يسمو عن المجتمع ويحاول أن يحقق الصورة المثالية التي يطمع إليها أفراد المجتمع ، فإذا استطاع المعهد أن يحقق ذلك استطاع أن ينقل النواة الصالحة لتلقى في أرض المجتمع فتنبت الشجرة الطيبة والثمار الكريمة •

وأول ما يعانيه مجتمعنا الفرقة بين أفراده والتمزق في بنيته ، أما المجتمع الاسلامي الحقيقي : فهو بناء عضوي متآزر متكامل ،

شبهه عليه الصلاة والسلام بالجسد مرة والبنيان مرة أخرى : فهو مجتمع قائم على التآخي والتواد والتساوي وتخصص كل في عمله ، والفرد خلية في الجسم تمد الجماعة بكل ما تستطيع وتستمد منها كل قوة ، إنه مجتمع قائم على الإيثار والتضحية وليس قائما على المنازعة الانانية ، وليس من السهل أن يرقى الفرد عن مستوى التنازع الأناني إلى مستوى الإيثار إلا إذا وجد لديه الحافز الذي يدفع إلى ذلك وهو حافز الإيمان .

والشرط الأول لمعهد الدعاة الذي يراد منه إصلاح المجتمع أن يشبه أفراده أفراد الجماعات الأولى .

ولا يتم هذا إلا باختيار موجهين صالحين صادقين من العالم الاسلامي كله يدعون إلى الإيمان ويحسنون تربيته في القلوب ، وتكون ساعات العبادة لديهم ليست بأقل أهمية من ساعات العلم، وساعات الدعوة ليست بأقل أهمية من ساعات العبادة .

ويكون هذا المعهد أسرة ينقطع أفرادها للدعوة ويتبتلون لحمل الرسالة ويقضون فيه ليلهم ونهارهم . يقومون في الليل حيث تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويجتهدون في النهار في العلم النافع والدعوة ويتعلمون البذل والجهاد والأخوة والعمل .

يأخذ هؤلاء الطلاب بأسباب التقوى ووسائل الخشية ، وينذرون أنفسهم لحمل دعوة الإسلام وتبليغ رسالته ، ويخشون الله ولا يخشون أحداً من خلقه ، ولا يفوتهم تزويد أنفسهم

بالوسائل العلمية جميعها فهناك دراسات نفسية واجتماعية وتربوية لا بد للداعي من الإلمام بها ، وهنالك وسائل للبلوغ إلى النفوس ودعوتها بالحكمة والموعظة الحسنة لابد من إحكامها ، وهنالك دراسة ما يجري في العالم وفي المجتمعات وما يصطرع به العالم من تيارات واتجاهات ، وهنالك التاريخ الإسلامي والحركات الإسلامية .

وأكبر من هذا كله الإيمان الذي يهيمن على القلوب فيؤلف بينها ويجمعها على الخير .

ويمكن تلخيص أسس هذا المعهد بالعبادة أولاً والعلم ثانياً والدعوة ثالثاً .

وبعد ، فهذه وسيلة من وسائل الإنقاذ ، وليست هي سبيل الإنقاذ الوحيدة ، وقد وصفت هذه الوسيلة بمواصفات لايدعى لها الكمال ولا الاستقصاء ، والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويهدينا إلى سواء السبيل.

خاتمة

وبعد فصراعنا اليوم مع الباطل صراع نكد لئيم فقد بلغ دعاة الباطل من القوة ما لم يبلغوا في يوم من الأيام ، وعرفوا من الوسائل ما تشيب له النواصي ، والحق باهت داكن أضاعه أهله بين الناس وأضاعوه في نفوسهم .

إن المسلمين يمتلكون الحق ولكنهم يعدمون كل وسيلة للحفاظ عليه أو الدفاع عنه حتى في أنفسهم وأبنائهم، فكيف يبلغونه الناس ؟! ولذا شحب مظهر هذا الحق الذي بأيديهم وأربد لونه وغدا حقهم شبيهاً بالباطل في أعين الناس ، وأعداء المسلمين يمتلكون كل وسيلة ويفقدون الغاية ، وينظر الناس إليهم فيفتتون بهم ويحسبون باطلهم شبيهاً بالحق .

ومن رحمة الله بعباده أن يقيض أناساً يجري الله كلمات الحق على ألسنتهم وإن كانوا في معسكر الباطل وينتصرون للحق وهم في دعامات بناء الشر ، وهؤلاء من أكابر مفكري الغرب وأساطين حضارته يصيحون بهذا العالم الذي ينحدر إلى هاويته ويهوي إلى مصرعه وإن صيحاتهم هذه نذر لعلها تلفت العالم الغربي العاتي إلى تغيير طريقة سيره ، فإن لم يكن ذلك فلعلها تكون سبباً لدعوة

العالم الإسلامي المتخلف أن يفيق من غفوته ويعرف سر الكنز الذي هو في حوزته •

وفي شأن الحضارة الغربية وما تعانيه من أزمات نفسية اجتماعية ، أشير إلى بعض الكتاب الغربيين العالميين من أمثال كاريل ، اشبنجلر ، توينبي ، رسل ، لاسكي ، برجسن ، لوبون •• وما أذكر من هؤلاء إلا أمثلة يسيرة لعدد وفير ، واقتطف مما كتب هؤلاء نماذج قليلة جداً للوصول إلى غاية هامة •

يعتبر توينبي (نقلا عن كتاب الدين في موقف الدفاع للأستاذ فتحي عثمان ص ٦١) : ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة نذير شر رهيب للغرب من ناحيتين :

١ ــ إن هذا التعلق الوثني بالدولة الإقليمية : هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية •

٢ ــ إن هذه العقيدة الباطلة هي السبب في انقضاء أجل مالا يقل عن (١٤) حضارة أو (١٦) حضارة من الحضارات الواحدة والعشرين •

وما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ويشتد فيها استعمال العنف ــ وهي نتيجة التعلق بالدولة الإقليمية ــ هي إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً •

يؤكد توينبي على فكرة عبادة الغربيين للدولة التي ينتمون إليها في كل ما يكتب ، ويرى أن هذه العبادة هي نذير دمار

البشرية ، والحق أن فكرة ألمانيا فوق الجميع هي في قرارة نفس كل أميركي وكل روسي وكل إنكليزي وكل فرنسي وإيطالي وكل غربي ، كل بالنسبة إلى بلده .

يصرح توينبي أن أزمة المجتمع الغربي روحانية وليست مادية ، إذ على الرغم من بلوغ هذا المجتمع الذروة في تقدمه المادي ، ما برح يحس بجوع روحي شديد .

يقول: « وإذا كانت النفوس الغربية قد استبد بها قلق الفراغ الروحي فألزمها فتح الباب لشياطين مثل القومية والفاشية والشيوعية فإلى متى تتحمل العيش بدون عقيدة دينية ؟! » .

ويقول : « إن التائهين في بيداء المجتمع الغربي قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذي آمن به أجدادهم ، أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية ــ كالكنائس الطائفية ــ أوثان تجلب عبادتها الحرب لا السلام ، وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلق بهدف بديل هو النظم السياسية الشاذة » .

ويقول : « لقد أصبح للدين المكانة الأولى في تصوري للتاريخ العالمي ، وليس هذا الدين هو الدين المسيحي الذي نشئت عليه ، بل أصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها في المكانة التي أتصورها للدين في المستقبل » .

أقول : وهذه الكلمة تصور تعطش هؤلاء إلى معنى إيماني يملأ خلاء قلوبهم على تخبطهم في الفهم وعدم تمييزهم بين

الغث والسمين وحقد دفين يملأ قلوبهم ، مع قعود المسلمين عن بيان وضوح الحق في دينهم وعدم بذلهم الجهود لتحقيق قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » (١) .

ويقول هارولد لاسكي وهو مفكر بريطاني اشتراكي :

« إن عالم اليوم يعاني من الشعور العميق بخيبة الأمل ، وقد انتشر هذا الشعور في أماكن كثيرة ، ويبدو أن جيلنا قد فقد قيمته ، لقد حل الشك السافر محل اليقين وحل اليأس محل الأمل .

وقد سددت الضربة القاضية إلى المعتقدات الدينية التي كانت مقياساً دائماً للسلوك ، وأصبحت الكنائس وسيلة للقيام بطقوس شكلية بدلاً من التأثير على معتقدات الناس ....

إن في مقدور هذا العلم ان يتيح الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادىء الرضا الروحي ، وعلى الشرق العريق في الوقت الحالي أن يتحدى هؤلاء الذين يسعون إلى الاحتفاظ بظروف الوصاية ... » .

أقول : إنه ينادي الشرق العريق ، وهو يقصد سكان الأراضي الطيبة المقدسة التي كانت مهد الأديان ومنطلق الهداية الإلهية يهيب بهؤلاء أن يتحدوا الغرب الذي يريد الاحتفاظ بوصايته على العالم .

---

(١) سورة الفتح ـ الآية ٢٨ .

إلى أن يقول :

« وانطلقت الأرواح الهائمة تعربد في الواقعية والسريالية وما إليهما .... ولكن هذا الخبط هنا وهناك لم يطمس حكمة تولستوي للهادية حين يقول : الأديان تقدم أسمى ما يمكن أن يصل إليه الانسان من فهم للحياة في أي عصر من العصور وفي أي مجتمع من المجتمعات . » .

ويقول غوستاف لوبون :

« دلنا التاريخ على أن أهم الحضارات قامت على المعتقدات الدينية ، وأنها توجت حياة الملايين من الرجال بما لا تقدر على فعله أية فلسفة من زهد وإخلاص وإنكار الذات ومحبة الآخرين ..

إن الثورات الدينية يمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيراً ، وقد شوهد ذلك عندما حول محمد بما جاء به قبائل العرب الضعيفة إلى أمة عزيزة .

ولا يقتصر المعتقد الديني الجديد على جعل الأمة متجانسة ، بل يأتي بما يتعذر على أي فيلسوف أو قانون أن يأتي بمثله ، إنه يغير عواطف الأمة الثابتة ....

والواقع إن الطاقة الدينيـــة تظهر ثمارها في الجماعات كما تظهر في حياة الأفراد . فالدين يؤدي وظيفة هامة جداً في تغيير بنية المجتمع » .

هؤلاء جميعاً ليسوا من دعاة الأديان ، ولكنهم جميعاً يتطلعون

إلى الحقيقة . والحق أن العالم يتطلع اليوم إلى أفق بعيد ، يرنو إلى النجاة ، يحس بجوع مؤلم وتعطش شديد إلى معاني الإيمان .

إن المشكلة في نظري ترجع إلى مسألة وحيدة ، هي خلو العالم الإسلامي من دعاة على مستوى العصر ، يجمعون إلى خشية الله والإخلاص له والتفاني في سبيله العلم الصحيح والوسائل القويمة والسبل الحكيمة مع عزائم ماضية دائبة لا تعرف السآمة ولا يتطرق إليها وهن ولا كلل ولا ملل .

دعاة يدعون (إلى الله) العامة والخاصة في المتاجر والأسواق والمساجد والمدارس . والمدارس والمساجد لها الصدارة في الأهمية والاهتمام ، يدعون الحكام والمسؤولين في أقضيتهم وتشريعاتهم ، يدعون المسلمين ويدعون غير المسلمين من الناس كافة .

وإن التربية على مستوى الجيل الماضي وتفكير العصور الماضية شيء انقضى عهده ، ولكل عصر وسائله وأساليبه ، فلا بد من مستوى يوازي مستوى اليوم ووسائل تضارع أساليب القوم، وإننا إذ كنا لا نستطيع الغلبة المادية على أعدائنا اليوم إلا باستعمال وسائلهم أنفسهم ، فالحال كذلك في الغلبة المعنوية شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلى جانب ما ذكرت من هيمنة الإيمان والنهل من مصادر الإسلام والتحلي بأوصاف مرتبة الاحسان .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

* * *

المحتـــوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٤ ـ ٨
مقدمة الكتاب	٩
المحاضرة الأولى :	
العبادة لله وحده	١٠ ـ ١٤
المحاضرة الثانية :	
الأخـــوة في الله	١٥ ـ ١٧
المحاضرة الثالثة :	
عدم موالاة غير المؤمنين	١٨ ـ ٣٤
آ ـ تحذير المسلمين من الطوائف المعادية	١٨ ـ ٢٥
ب ـ نفسية الكافرين	٢٦ ـ ٣٠
جـ ـ مآل طاعة الكافرين الخسران	٣٠ ـ ٣٤
المحاضرة الرابعة :	
المسؤوليـــة :	٣٥ ـ ٦١
آ ـ مفهوم المسؤولية	٣٥ ـ ٣٨
ب ـ تربية المسؤولية	٣٩ ـ ٤٢
جـ ـ تربية القادة لاتربية العبيد	٤٣ ـ ٥٨
د ـ تحمل المسؤولية	٥٨ ـ ٦١
المحاضرة الخامسة :	
واجب الدعوة	٦٢ ـ ٦٥